تصدير

لعل أغلب دارسى ديكارت يتذكرون أثر مطالعتهم للفيلسوف وإطلاعهم على ما احتوته مؤلفاته من فروض ومواقف عجيبة غريبة : يبدأ الرجل بالشك ، ثم بالكلام عن إله خداع ؛ ثم يتجاهل ذلك الإله ، فيتكلم عن شيطان ماكر ، ثم يخرج من هذا وذاك بحكم قاطع بوجود نفسه ، يقضى به على فكرة الإله الخداع وعلى فرض الشيطان الماكر . ويمضى بعد ذلك فى الكلام عن شخصيته وتفكيره وعن الحقائق التى يستطيع بلوغها بتفكيره الشخصى وحده ، بعد أن قضى على كل يقين خارج نفسه .

هذا شىء لا ينساه قارئ ديكارت ويعجب له كلما عنّ له أن يطالع الفيلسوف . ويتجدد التعجب ويصير إعجابا ويتمادى الإنسان فى إعجابه بديكارت ويخيل إليه فى بعض الأحيان أنه يستطيع الأقتداء به .

غير أن السنين تمر على قارئ ديكارت ، كما تمر على القراءة بعد القراءة ، والشرح بعد الشرح ، على الكتاب أو المقال عن ديكارت بعد الكتاب أو المقال ، حتى ينتاب المرء فى نهاية الأمر ملل لا يعدله ملل ، وضجر ما بعده ضجر ، فيلقى الكتب جانبًا ولا يطالع للرجل أو عنه . ويصبح لديكارت عنده منزلة دون غيره من الفلاسفة الذين أحبهم وما زال يحبهم ويعجب بهم : أمثال أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وپسكال .

إلا أنه كثيراً ما تعقب تلك المطالعات ، وكثيراً ما يعقب ذلك الملل ، عودة إلى ديكارت ، إلى حياته وكتبه وخطاباته . إنما هى عودة وفى نفس القارئ شعور جديد . . شعور بعظمة الفيلسوف وعبقريته ، إنما فى معنى جديد ، غير الذى تصوره فى البداية ، وغير الذى عرفه عند الدعاة لديكارت والمروجين لمنهجه . يصبح ديكارت عنده لا يطل العجائب والغرائب ، لا مثير الدهشة والذهول ،

إنما بطل البسائط والأفكار الواضحة والحقائق المألوفة ، إن صح أن هناك بطولة فى ذلك الميدان .

ولم لا؟ ولم يكون الأمر غير ذلك، لوفهمت الفلسفة على أنها حركة الانتقال من الغريب العجيب ، إلى البسيط المألوف ، من الشعور بالدهشة ، إلى الشعور بخيبة الأمل ، ثم إلى تعرف الحقائق والائتناس بها والتآلف معها .

إن هذا هو المعنى الحقيقى للفلسفة عند ديكارت وهو الذى قرره الفيلسوف عن نفسه وعن فلسفته وعن أثر فلسفته فى قرائها . فنجده فى خطاب كتبه فى أواخر حياته يشير إلى ما يحس به قارؤه لأول مرة من دهشة ثم إعجاب ، سرعان ما يختفيان عندما يلم صاحبهما بالآراء الفلسفية، ويتعرفها فى بساطتها ، واتفاقها مع العقل السليم . ثم تختفى الدهشة ويختفى الإعجاب بالآراء الفلسفية ، وينتهى معهما تقدير القارئ لتلك الآراء، علامةً — كما يقول ديكارت — على أن الناس «لا يقدرون إلا ما يبعث فى أنفسهم الذهول ومالا يفهمونه تمام الفهم»[١] ويشير ديكارت فى خطابين سابقين لهذا أنه لم يُزَيِّن كتبه للقراء .[٢] ذلك لأن الزينة ليست من علائم الحقيقة، تلك الحقيقة التى ينشدها قراء قلائل أمثال أصدقائه شانو Chanut أو الأميرة اليصابات أو الملكة كريستينا ملكة السويد .

ولعل واجبنا فى الوقت الحاضر ، ونحو بلادنا التى لم تعد تعرف للزينة الكاذبة معنى ، أن نتجاوز فى دراستنا لديكارت ، مرحلة الدهشة والذهول التى يمر بها قراء ديكارت فى بداية اتصالهم بهذا الفيلسوف العظيم ، وأن نحاول تفهم الحقائق البسيطة الأولى التى أرجع إليها فلسفته ، وخاصة فلسفته فيما بعد الطبيعة . وأن نتمشى معه حين يشرح منهجه وحين يمارسه، لا أن نُكَوِّن فكرة عامة عن هذا المنهج ونحاول تطبيقها . يجب أن نلاحظ الرجل فى فلسفته ، ونتابع حياته وأوقاته

---

(١) طالع خطابه لصديقه شانو Chanut فى ٣١ — ٣ — ١٦٤٩ طبعة لاپلياد ص ١٠٧٤

(٢) طالع خطابين الأول فى ١٦٤٦/١١/١ (لاپلياد ص ١٠٠٦) والثانى فى مايو سنة ١٦٤٨ (لاپلياد ١٠٦٢) .

فى التأمل الفلسفى ، والاّ نفصل الفلسفة عن حياته وعن آوقاته ، كما لو كانت من الخوارق .

ولعلنا ، فى محاولتنا هذه لفهم المعانى البسيطة وحقائق العقل السليم التى نادى بها ديكارت ، نوفق فى فهم معنى الفلسفة ومعنى العظمة الفلسفية ، وأن تلك العظمة لاتحتمل الدعاية أو التقليد .

obeikandl.com